

تجليات الآخر الحدائي في الواقع الثقافي العربي

Manifestation of the modernist Other in the Arab reality

الطالبة زوليخة خبوز *

جامعة يحيى فارس-المدينة-(الجزائر)

zoulikhabouz@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/06/25

تاريخ القبول: 2021/06/18

تاريخ الإرسال: 2021/04/15

الملخص:

تتناول هذه الدراسة قضية جدلية تجمع بين الأنا العربية والآخر الغربي ضمن الحقل الثقافي العربي، إذ باتت تجمعهما مصالح مشتركة وتفرقهما خصائص ثقافية وإيديولوجية مختلفة. هذا الاختلاف الذي يبرر وجود الصراع والصدام بينهما استنادا إلى مرجعيات دينية وثقافية وواقعية وغيرها، من باب تأثير التيار الحدائي الغربي السلبي والإيجابي على خصوصية الثقافة العربية، ومن هذا المنطلق تطرح إشكالية طبيعة العلاقة التي تجمع الذات العربية والآخر الغربي في إطار الاختلاف والتباعد الثقافي، ومدى حتمية التعايش بينهما.

الكلمات المفتاحية: الأنا العربية، الآخر الغربي، الاختلاف الثقافي، التأثير والتأثر.

Abstract:

This study tackles a controversial issue that opposes the Arab self to the westerner Other within the Arab cultural field, as they join around common interests and are split by different ideological and cultural characteristics. This difference is what underlies the conflicting clashes that lean on religious and cultural references, on the one hand, and the negative and positive effects of western modernism on the Arab culture specificities, on the Other. Given this, the issue is problematized around the nature of the relation between the Arab self and the westerner Other within difference and cultural distancing, along with the possibility of coexistence.

Key words: The Arab self, westerner Other, Cultural difference, mutual influence.

مقدمة:

إنّ معالجة مسألة "الآخر" في هذه الدراسة تفرض علينا تحديد السبل الكفيلة لتحقيق توافق ثقافي فعّال بين مختلف الشعوب من خلال الموروث الثقافي المشترك بينهما، باعتبار أن ثقافة أي أمة من الأمم لا يمكن أن تتغلق عن مؤثرات الثقافات الإنسانية الأخرى، من أجل إثراء بعضها البعض واكتساب طاقة التغيير، ويحصل ذلك في ظل غزو ثقافة الآخر للمجتمعات العربية باستعمال وسائل التقدم والاتصال الحديثة التي تخلق بدورها المناخ الثقافي المعاصر، بل المهيمن في العالم، هذا الأخير الذي أصبح اليوم يشهد وتيرة تحول وتطور تكنولوجي وعلمي مذهل، خاصة بعد ما حققه الغرب من تفوق حضاري وعلمي وسياسي وفي شتى المجالات، هذا ما حوّل له أن يقترح نفسه كمغيّر للوضع الثقافي العربي مكتسحا بذلك هويته الحضارية، ونجد مقابل هذا عدم تقدم وتغير الثقافات والأمم العربية بالأخص، التي لا تزال متمسكة بموروثها التقليدي وبماضيها حدّ التعصب، خوفا من طمس هويتها وخصوصياتها العربية، وهو ما يعرف بالصدام الحضاري أو صراع الثقافات الذي يحيل إلى ثنائيات: الأنا/الآخر، المركز/الهامش، الشرق/الغرب.

ومن أجل معرفة آليات واستراتيجيات "الآخر" المؤثرة في الواقع الثقافي العربي، لا بد من العودة إلى كينونة هذا الواقع الذي باتت تؤججه صراعات أيديولوجية، والذي أصبح الآخر يشكل جزءا أساسيا من نسيجه الاجتماعي والثقافي، ومؤثرا في صلب حياته اليومية.

فنجد هذه الدراسة تهدف في جوهرها إلى البحث عن العلاقة التي تجمع "الأنا العربية" و"الآخر الغربي"، إذ سنحاول إستشفاف علاقة كل طرف بالآخر من خلال بنى اجتماعية وثقافية ودينية وإيديولوجية، وتضييق للصورة السلبية المرتبطة دائما بالآخر على حساب تمركز الأنا في حدود التواصل والتعايش معه، ومعرفة مدى توافق الحوار الثقافي بين طرفين غير متكافئين، وبناء جسر تواصل أساسه التنوع والتغيير مع حفظ التمايز الهوياتي دون هيمنة أو إستعلاء، الأمر الذي يجعلنا نسلط الضوء على حضور الآخر المختلف دينيا وثقافيا وعرقيا، متكئين في ذلك على تحليل واقعنا الفكري والثقافي في ظل التحولات الحداثية، مستنديين إلى مرجعيات ثقافية ودينية وإيديولوجية من شأنها أن تكشف عن دور الثقافة المهم في تكوين صراع وتلاحم في نفس الوقت بين الأنا والآخر. من هنا إتسعت رقعة الأسئلة لتشمل علاقة الآخر الغربي بالأنا العربية، لتتبنى دراستنا على الإشكالية الآتية:

- ما طبيعة العلاقة التي تجمع الأنا العربية بالآخر الغربي وفق المرجع الثقافي والديني؟

- وما مدى قبولها ورفضها للحدث الغربي وتوغلها في واقعها الثقافي العربي في الحدود الإيجابية والسلبية؟
- كيف تجلّت صورة الآخر الغربي من منظور الأنا العربية؟

2. الثقافة والمجتمع:

إنّ الذي يهمننا في دراستنا بالدرجة الأولى هو كشف صورة "الآخر" وتأثيراته على منظومة القيم وخصوصيات الثقافة العربية، سواء كان تأثيرا إيجابيا أو سلبيا. ابتداء بتعريفات الثقافة المختلفة باعتبارها المحور الأساس للدراسة، إذ "لا يمكن استقصاء كل المفاهيم المتعددة للثقافة لدى الكثير من المفكرين العرب والأجانب، [بل] نكتفي بما يخدم الغرض، بتوضيح الفكرة القاعدة منطلقا للملاحظة والنظر والدرس من خلال الفهم الإصطلاحي لكلمة الثقافة"¹. ومنه نرى أن كلمة ثقافة لها معانٍ كثيرة ومتعددة ويعود ذلك إلى كونها تعرّف بحسب المجتمعات والشعوب والسياقات المختلفة، فقد عُرِّفت على أنها «هي كل مظاهر التعبير الإنساني»². بحسب تعبير **عبد الله العروي**، وفي رأيه أن كل ظاهرة في مجتمع إنساني هي عنصر من عناصر الثقافة الإنسانية، وهو نفس الرأي الذي تبناه **كلود ليفي ستراوس** **claude lévi-strauss** من قبل، حيث أقرّ أنّ «الثقافة هي اللغة والأدوات والمؤسسات الاجتماعية ونظام القيم الجمالي والأخلاقي والديني»³. وعليه فهي تلعب دورا مهما في بناء هويات المجتمعات العربية باعتبارها نسقا إيديولوجيا مكتسبا، ويُقصد بها أيضا «مجموعة القيم والأفكار التي تشكل نسقا رمزيا يوجّه التفاعل الاجتماعي في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية، وتنتقل الثقافة من جيل لآخر ويستوعبها الأفراد من خلال مؤسسات التنشئة الاجتماعية كالأُسرة والمدرسة ومؤسسات العمل»⁴. أي أنها تعتبر تلك المقومات الثقافية التي تتداول عبر الأجيال من منظور الإلتحام والإحتكاك الاجتماعي والثقافي بين الأمم، لذلك يجب أن يكون هناك تفاعل وتواصل إنساني بين الثقافات عند مختلف الشعوب وفق منظومة من التجارب والقيم الناشدة لوقائع الحياة.

إنطلاقا من هذه التعاريف المتنوعة للثقافة يمكن القول أنّ «الثقافة بمعناها الواسع هي وسيلة التقدم والنمو... على نحو ما إنتهت إليه الدراسات العالمية الحديثة جميعها مادامت الغاية الأخيرة للتنمية هي توفير الحياة الطيبة الكريمة، جسديا وفكريا واجتماعيا لكل كائن حي إنساني»⁵. فتطوير الثقافة والنهوض بها أصبح الهدف الأسمى عند أغلب الشعوب وفي مقابل تقدّمها تكون قد رسمت صورتها المتفوقة والتي تساعد على الإكتمال في نظر الآخرين. فقد بات الإنسان يعيش في المجتمع ضمن إطار ثقافي خاضع

لمبادئه وتأثيراته من عادات وتقاليد وتراث بالدرجة الأولى، هذا الأخير الذي أصبح متصلا بحياة الأمة عامة والعربية خاصة، بغية خلق ثقافة معه من باب التأثير والتأثر الإيجابي.

1.2 التراث كسلطة مهيمنة على الفكر العربي:

لا مفر من الخضوع لمبدأ التراث والتاريخ والوقوع تحت تأثيره وذلك من باب توغله في حياة المجتمعات العربية التي أبت أن تتنصل منه وتتقدم «فالعودة إلى التراث لا تعني مطلقا العودة إلى الماضي كله، بل الاستفادة من عناصره القابلة للاستمرار والتأثير الإيجابي في الحياة الإنسانية والتي يصنع مستقبلها الخاص المميز لشخصيتها، فكان من الطبيعي أن تمثل الأمة لحضارتها وثقافتها في حدود التواصل الطبيعي مع تراثها»⁶. وعليه نجد الأمة العربية تفقد الكثير من العناصر التي تؤهلها حضاريا وثقافيا حيال تمسكها بماضيها وبنزعة التقديس له، الأمر الذي جعلها تتغلق على جذورها مقنعة نفسها أن هذا الوافد الحضاري الأجنبي سيحل أو يستحوذ على تراثها الأصلي [بحسب رأيها]. رافضة بذلك الأخذ منه أو تقليده، مانعة تدخل الحضارة العصرية للآخر على خصوصيات مبادئ ثقافتها. فلا يمكن للفكر الحداثي أن يؤسس بمعزل عن التراث، باعتباره نقطة إنطلاق أي مشروع حداثي إبداعي، فهو بمثابة تصوير لأصالة الماضي في الحضارة السائدة. في حين يكمن هدف الحداثية في التغيير والتطوير وإيجاد مجتمع يطمح إلى «النقد، وعدم الثقة بالتقاليد، وبالتفائل والإيمان بالعقل، وبالعودة إلى التفكير الذاتي، والحكم على أساس التجربة الشخصية»⁷. حيث نجد الحداثية الغربية تدعوها -الأمم العربية- إلى النهوض بذاتها والاجتهاد في الإبداع، إيماننا منها بقدرتها على تجاوز ذاتها وبيئتها انطلاقا من جوهرها الثقافي العربي والإسلامي، والتصالح الحداثي الذي من شأنه أن يطورها ويرقيها إلى مستوى الأمم الأخرى.

3. المرجع الديني:

عندما نتحدث عن مجتمع عربي مسلم تحكمه البنى الإسلامية كمنظومة ثقافية تستعين بالمرجع الديني والعقائدي كمحفز للنزاع والصراع مع الآخر، فإنه من الطبيعي أن يظهر الآخر في صورة مختلفة ودونية تحكمها تجارب وخلفيات اجتماعية وتاريخية. فلا ننظر منه -المجتمع الإسلامي- الترحيب بالآخر المخالف تماما لمنظومة القيم والمبادئ الإسلامية الراسخة فيه و كذا إرتسام صورة إيجابية عنه. «فمن المؤكد أن المنظومة الثقافية العقائدية الإسلامية تتدخل في رسم صورة عن هذا الآخر، وفي حقبة يعتبر الموجه العقائدي فيها محفزا لتشويه الآخر... فليس من المنتظر البحث عن نقاء في الصورة، فطالما أنتجت ومازالت الأعراق والعقائد صورا إستعلائية لنفسها وتخفيضية لغيرها»⁸. هذا ماعق هوّة الصراع والخلاف بين الإسلام والغرب، باعتبار هذا الأخير يعيش داخل منظومة ثقافية غير مشبعة عقائديا تحيل بينه وبين المنظومة الإسلامية التي «لم تتمكن من إنتاج ماضيها بما يوافق حاضرها، ولم تتمكن أيضا

من أن تتكيف مع الحضارة الحديثة المنبثقة من الغرب، وعلى هذا فقد إنشطرت بين قيم متعالية وقيم غربية»⁹. حيث نجد واقع علاقتهما متأزم منذ القدم ويزداد أكثر عداء وحساسية. خاصة وأنّ الحداثة الغربية تسعى بالدرجة الأولى إلى تغيير مرجعية الحياة، من دينية إلى إنسانية، أي التحرر من كل ظواهر التقديس وتحطيم الاعتقادات التقليدية بحجة الدين كسلطة عليا، وبثّ روح التقدم والتغيير بغية تشكيل نموذج ثقافي حضاري في الزمان والمكان السائد خال من رواسب الماضي، المتشبثة بها الشعوب الإسلامية ضمن إطار الهوية الثابتة، هذا ما أدى إلى إنشطار الذات العربية بين مرجعياتها الثقافية والدينية والمتغيرات الحداثية، فلا يمكن لها أن تتقيّد بمنظومتها الخاصة وسط منظومة متغيرة وفق شروط تنموية متطورة، ما يؤدي لا محال إلى الإنغلاق الهوياتي. «فالحداثة المنشودة لا تقرّ بالثبات إنما تتطلع دائما إلى التجدد، وبذلك تنتج فكرا يتحول باستمرار متخطيا فكرة الهوية القارة واليقين الثابت، وبهما تستبدل هوية ثقافية وقيمية متحولة ومنفتحة، تقرّ بنسبية علاقتها مع نفسها وتاريخها وفرضياتها بالدرجة نفسها التي تقرّ فيها بنسبية الهويات الأخرى. وتشكل مضمونها من نسيج متنوع الموارد يقوم على فكرة الحوار، والتواصل، والتفاعل»¹⁰. هذا ما يحدد سمات الحداثة بتطلعاتها وسياقاتها الحضارية، خاصة سماتها العقلانية المنقطعة مع الدين الذي تعتبره أمرا ذاتيا خاصا، حيث تقوم الحداثة على طمس العقلية التقليدية المعيقة والصّادة للتطور، وتدخل الجميع في منظومة يسودها التكافؤ والإشترك، وليس في منظومة تحكمها الضوابط العقائدية والعرقية التي تحيل بين الأنا العربية والآخر الغربي وتهدم جسور التواصل والتفاعل، لكن إلى أي مدى يمكن تطبيق حيثيات الحداثة الغربية على العالم الإسلامي؟

لا يمكن إلغاء وإنكار ما أنجزته الحداثة الغربية بحمولاتها الإيديولوجية ونقلتها التي أحدثتها على البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية العربية، لكن هذا لا ينفي أنّ لها جوانب وتأثيرات سلبية على المجتمع العربي الإسلامي الذي مازال يفكر تفكيرا إلهيا ميتافيزيقيا و المتمثلة في إجتثاثه من إنتمائه التقليدي والتدخل في خصوصياته الثقافية والدينية، وممارسة سلوكيات إنسانية قائمة على الهيمنة والسيطرة، هذا ما «يكشف أنّ الثقافة الغربية شأنها شأن كل ثقافة في هذه الحالة، لم تتحول إلى منشط يغذي الثقافات بالأسئلة الجديدة، إنما أدرجتها في سياق التبعية، ثم الذوبان، واعتصم جانب منها بذاته تحت وهم الخصوصية المطلقة والمقاومة»¹¹. فقد ظهرت أزمات الذات الغربية المبنية على أسس ومقومات مبخّسة للثقافات غير الغربية، خاصة إذا كانت تحمل رؤية فلسفية مغايرة للمنظومة الغربية الداعية والمؤسسة للحداثة، هذه الأخيرة التي تختلف باختلاف الآراء والأفكار وتتعدد بتعدد الأنساق والمرجعيات المعرفية، هذا ما يقرّ باختلاف المنظومتين، فالحداثة الأوروبية تقوم على أسس بعيدة عن الدين، بخلاف المنظومة الإسلامية التي بنت ركائزها على أسس دينية أخلاقية، الأمر الذي رفضته

الحدث الغريب وهو عدم تقبل أية منظومة تخرج عن طوعها وانتمائها لها. هذا ما يبرر عدم تطابق وتوافق الفكر الغربي الحدثي مع الفكر العربي الإسلامي، خاصة وأن «الايديولوجيا الدينية في المجتمعات العربية تنبعث في حيوية كاسحة بين الافراد والجماعات المختلفة. وتحاول الايديولوجيا الدينية تشكيل المجتمعات العربية- الاسلامية من جديد أو العودة إلى الأصول، فهي تزعم أنها تمتلك نموذجاً مثالياً للمجتمع الاسلامي المنشود»¹². لذلك يمكننا القول بأن «استيراد النموذج الحدثي الغربي لن يفيدنا كثيراً في عملية النهوض والبناء، لأن هذا النموذج فيه تحيزات للمادية والعلمانية، والمركزية الغربية، نموذج يفصل الحدث عن القيمة، ويبرهن استمرارها بقيمة القوة لا بقوة القيمة»¹³. لذلك يتوجب المناشدة بالحدث الجديدة والسير وفق مبادئها، وهي الحدث التي يدعو إليها عبد الوهاب المسيري، التي من شأنها أن تحقق التوازن بين قيم الذات وقيم الآخر، حيث أقر «بحدثا تتبنى قيم العلم والتكنولوجيا، ولا تضرب بالقيم أو بالغائية الإنسانية عرض الحائط، حدثا تحيي العقل، ولا تميت القلب، تنمي وجودنا المادي ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود، تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث»¹⁴. حيث دعى بطرحه هذا الحدث الغربية إلى احترام خصوصيات الثقافة العربية وتمسكها بماضيها وتراثها، ومراعاة الفوارق الحاصلة بينهما، وممارسة عولمتها وتكنولوجيتها دون إلحاق الضرر بالفكر والمنظومة العربية الإسلامية، من أجل تكوين ثقافة موحدة أساسها التفاهم والتواصل، وإلغاء الحواجز الفاصلة بين الأنا/الآخر.

وإذا ما خصصنا الحديث عن العامل الديني وعن نظرة الإسلام لعلاقتنا بالآخر المختلف دينياً وعقائدياً، نجد أنه يقر بضرورة التواصل والتعاون الفعّال معه، ونشد الاحترام المتبادل من أجل الوصول إلى هدف أسمى. فتمظهرات الآخر المختلف ليست بالأمر الجديد بل كانت متواجدة منذ ظهور الإسلام، الذي جردوه من «القيم الكبرى التي إتصف بها كنسق ثقافي يقر بالتنوع والاجتهاد، ويحث على التغيير والتجديد»¹⁵. فقد كان الآخر عنصراً أساسياً في بناء ركيزة ثقافة ما، وتطويراً للمعارف الاجتماعية والحضارية. هذا ما يوضح أن «النظرة إلى الآخر كانت تقوم على أسس دينية وقيمية، فالدين هو الذي يمنح المعنى للأشياء، وللظواهر وللشعر، لذلك فإن البحث عن ملامح الآخر يفترض العودة بكيفية ما إلى النص المرجعي الأول، إلى القرآن، الذي يزود النظر ببعض عناصر الإدراك والوعي»¹⁶. هذا ما نجده مؤكداً في القرآن الكريم في قوله عز وجل ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾¹⁷. ومنه فقد أقر الإسلام بمبدأ تعددية الشعوب والتسليم بها، ونظر للعلاقة مع الآخر في حدود التعايش معه، لبناء ركيزة أساسية ملؤها الألفة والتعاون بين الشعوب. حيث نجد «بعضهم يفسر التعددية بأنها ذات صلة بفكرة المساواة أمام الله، ويفسر البعض الآخر من الهوية القائمة على نفي هوية الغير وإلغائها، أو كما يقول داريوش شايعان: "إن أخطر الهويات على الإطلاق

هي تلك التي لا تحقق إلا على أنقاض هويات الآخرين. ينبغي أن تكون هويتي متصالحة، مثقفة أو متوافقة مع هويات الآخرين لا أن ترفضها وتهدها بالإلغاء»¹⁸. والمقصود هنا التعددية الدينية Religious Pluralism، التي تضعنا أمام مجتمعين مختلفين في الهويات الدينية، مجتمع يقرّ بالتعددية ومتسامح، ومجتمع يدعو إلى الوحدة الدينية ومتعصب.

4. المرجع الثقافي:

تعتبر قضية الاختلاف الثقافي *Différence culturelle* بين الذات والآخر من أهم القضايا التي اختص بها النقد الثقافي، وحقيقة ظاهرة في الحياة البشرية الآنية وفي تاريخها، نتيجة عدة عوامل أهمها الثقافة *la culture* باعتبارها من أهم محددات هوية الفرد، والتي تساعد في إدراك وفهم الذات لنفسها وللآخر. فكثيراً ما أدى هذا التنوع الثقافي والحضاري إلى نشوب حروب وصراعات بين طائفتين وشعوب مختلفة، تحت تأثير العوامل الديموغرافية كالجنس والعرق، والقيم والمعايير الثقافية، هذا ما يعرف بالتعصب الثقافي، وأحياناً أخرى نجده وسيلة حوار وتواصل بين الشعوب والحضارات وذلك حين تلغى الفوارق والحوازر الفاصلة بينهم بغية نشد الإرتقاء والتطور الحضاري. لكن قلماً يطبق هذا الحوار خاصة وأنّ الذات العربية تسعى لوضع حدود وثوابت لثقافتها إيماناً منها أنها السبيل الوحيد لحمايتها والحفاظ عليها، دون أن تغفل عن وعيها التام بثقافة الآخر، هذا ما جعلها تتقوقع على نفسها رافضة بذلك ثقافة الآخر التي تعتبرها كتهديد لثقافتها. هذا ما عزز فكرة عدم التواصل والتفاهم بين الشعوب أو طائفتين مختلفتين، خاصة بعد إدراك الذات العربية أنّ الآخر يسعى إلى تهميشها وإقصائها وباقي الثقافات غير العربية، بسياساته الإغرائية، ليحقق السلطة والمركزية في شتى المجالات، فتدمير أمة أو شعب ما يبدأ من وخزها في ثقافتها والتسلل إليها حتى الاستحواذ عليها «فالثقافة وسيلة خطيرة وفعالة لأنها الأكثر من غيرها قدرة على تثبيت التصورات، والقيم، والرؤى، وترسيخ المرجعيات الفكرية»¹⁹. حيث تعتبر دافعا مهما في تنمية وتقدم الحضارات المتنوعة، حتى وإن اختلفت مرجعياتها ومنطلقاتها، مع إحترام كل حضارة لتنوع الخصوصيات الثقافية، لما لهذه الأخيرة من تأثير على الإستقرار والتوازن الهوياتي لمختلف الشعوب. فقد أصبحت الثقافة الحداثية بتطورها وعولمتها عابرة للقارات مهيمنة في شتى المجالات، فارضة مركزيتها على الأمم العربية التقليدية الضعيفة بحجة عصرنتها وانتشالها من رواسب الماضي والتقليد، إذ «التمايز على أسس ثقافية يضع الثقافات التقليدية أمام احتمالين: إما ذوبان الهويات الثقافية الأصلية إذا لم تنتشع بالخصائص الشعورية والذهنية والتاريخية المتصلة بسياقاتها الثقافية... أو الإنكفاء على الذات بسبب هيمنة الثقافات الأجنبية»²⁰. ما يؤدي إلى تمازج الهويات الثقافية بفعل الاختلاف الثقافي من جهة، والتداخل الحاصل مع ثقافة الآخر من جهة أخرى، ويقود هذا إلى تدمير الأنساق

الثقافية والإيديولوجية الأصلية واستبعادها لتحل محلها أنساق أخرى، بهدف ترسيخ طابع ثقافي جديد ومتطور خالٍ من تمظهرات الماضي. فهوية الذات يصنعها الآخر من خلال المحددات الثقافية. حيث ظلت الثقافة العربية متوهمة بأنها متمسكة بأصالتها نافية للآخر، لكن الواقع عكس ذلك فهي تعيش حالة خوف دائمة خاصة وأنها تدرك أنّ هذا التبادل الثقافي هدفه التخلص من الموروث القديم وطمس الهوية العربية بغية التوغّل في العولمة والنظام الحداثي، فالملاحظ أنّ «العلاقة بالغرب لم تقم على أسس عقلانية، واحترام متبادل، إنما قامت على الموروث الحضاري للغرب بنظرته الدونية للآخر-العربي، القائمة على التمييز الحضاري والعنصري»²¹. فمن أجل إلغاء هذه الحالة يجب خلق آليات تحاور وتلاقي بين الأنا والآخر وعدم تعصب الذات وكراهيتها للآخر الذي من شأنه أن ينتشلها من دونيتها ويرتقي بها ويطورها، والعكس بالنسبة لنظرة الآخر الدونية للعربي الذي بدوره تجمع معه مصالح مشتركة. هذا ما أدى بثقافة الآخر الحداثية في أن تصبح «مرآة تساعدنا على رؤية أنفسنا في السلم الحضاري، وتحدد لنا على أية درجة نقف، وكيف سننوجه، وأية أدوات نستعمل لإستكمال مشروع المعاصرة»²². ذلك أنّ الثقافة العربية ليست ثقافة قومية خالصة بل تستند إلى مرجعيات ثقافية أجنبية نتيجة عدة تفاعلات مع الثقافات الأخرى. وبالتالي فإن كان ملزوما علينا الإستعانة بثقافة الآخر والانفتاح عليها، بهدف تطوير ثقافتنا في حدود بناء جسر للتقدم والرقي، لا يعطي الحق للآخر بتجريد الشعوب من ثقافتها، فهذا الأمر يقتضي حوارا ومفاهمة وتوصلا في حدود المعقول واللامتجاوز.

5. صورة الآخر وحتمية التعايش:

بناء على ما سبق نكون قد مهّدا للحديث عن تمظهرات صورة "الآخر" في الثقافة العربية المعتصمة بذاتها وبهويتها الثقافية، ورصد الجدل الحاصل بينهما من خلال إمتدادات وإفرازات ثقافة "الآخر" المؤثرة بدورها في نسق القيم والعلاقات في مجتمعاتنا العربية، وهذا ما يؤدي إلى تشكيل صورة مشوهة عن "الآخر" وخاصة الغربي، هذا الأخير الذي يهدف إلى تغيير الركائز التقليدية في الموروث الثقافي العربي، ومحو فكرة الخضوع والتشبث بالماضي وجعله متقبلا لفكرة التطور والتغيير. بالرغم من أنّ الثقافة العربية «تحاكي الغرب في بعض مظاهره لكنها تتقاطع معه في تصرفاتها العامة، وفي أخلاقيات الممارسة السياسية وهذا وصف يراد به الوصول إلى معرفة أننا مازلنا نعيش ذيل الحقبة الإستعمارية»²³. فمجتمعاتنا العربية تصوّر الآخر على أساس أنه المستعمر والمتسلط، رافضة أي دمج ضمن خصوصياتها الثقافية، جاعلة من تمسكها بتراثها هدفا لها ذا بعد وطني هوياتي، في حين هدف الآخر هو التطور في الحاضر والمستقبل.

لكن عند نهلنا من ثقافة الآخر بحجة المثاقفة وحوار الثقافات، ينبغي القيام بذلك وفق قواعد مضبوطة حتى لا نقع في فخ الخضوع والتبعية والتقليد. التي تجعل الذات العربية تبدو كأمة مصغرة وضعيفة تُطبق عليها جميع الأساليب والمحاولات وتأخذ كل شيء جاهزاً، دون محاولتها النهوض بذاتها وتطويرها والخروج من بوتقة التبعية الغربية. لذلك يجب أن يكون هناك تواضع من كلا الطرفين (الأنا والآخر) وعدم إظهار التفوق حتى يحصل التعايش، ولو على المستوى التنظيري.

ففي حال غياب التواصل الإيجابي ستظل أزمة الذات مستمرة ويظل الآخر يشكل مصدر تهديد لها وإختراق. وتصبح مهددة مرتين: إما المحافظة على أصالتها وبالتالي العدول عن خدمات الآخر، أو تغييرها وافتتاحها على ثقافته، الأمر الذي يؤدي حتماً إلى التواصل معه. فشعور الأنا العربية بالنقص في المجالات كافة أحبط لديها كل محاولات تحسين موقفها إزاء الآخر والتفكير بالتفوق عليه، وبالتالي كان الإحساس بالهزيمة قويا بالنسبة لها ولاسيما وهي تحاول إثبات وجودها ككينونة فاعلة ومؤثرة في الحياة الفكرية والثقافية والسياسية، حيث أصبح هاجس العلاقة بالغرب المتفوق مؤثراً وحاضراً في الفكر العربي.

من الملاحظ أنّ صورة الآخر هنا تتجلى في كونه المتطور والمتفوق الحضاري دائماً، المرتبط بالأنا العاجزة المكنتلة الأيدي، المواكبة لتطور ثقافة الآخر. فكل منهما صار بمثابة مرآة للآخر، لتتطور صورة "الآخر" لتصل إلى حدّ الطغيان والتسلّط على حضارة وثقافة الشعوب وإقصائها، بخلاف الثقافة العربية التي تسير وفق منهج الحوار والتواصل مع هذا الآخر. « فإذا كان الشرق في معالجة إدوارد سعيد للاستشراق هو الآخر بالنسبة للغرب بوصفها سمات دونية وربما غير آدمية. فإنّ المفارقة التي تتجسد دائماً ضمن خطاب الذات والآخر هي مفارقة الجوهر نفسه: أي أن سمة (أو السمات) المائزة التي تجعل الشرق شرقاً لا علاقة لها بالكيفية التي يعامل بها الغرب آخره الشرق، وهي مفارقة الإيديولوجيا عموماً»²⁴. وذلك من منطلق أنّ سمات الآخر المختلف إيديولوجيا هي الاستعلاء والرغبة في السيطرة وإبراز التفوق على الذات. وهذا ما أدى بهذه الأخيرة إلى تكوين وخلق صورة سلبية عن الآخر. ففي حقيقة الأمر لا نجد إنفتاح الآخر على ثقافة الأنا العربية، إلّا ضرباً من ضروب الهيمنة والمركزية.

ونحن إذ نرى ضرورة إنفتاح الذات على ثقافة الآخر الذي أصبح «يعيش بيننا ويتغلغل في نبض حياتنا اليومية حتى باتت كثير من الأسر العربية لا تستطيع العيش من دون خدماته»²⁵. فإننا لانقصد تنصلها من هويتها، بل من أجل خلق نموذج ثقافي وحضاري مكوّن من ثقافتين، بحيث يحترم كل طرف وجهة نظر الطرف الآخر.

هذا ما نظّر إليه جون بول سارتر **Jean-paul sartre** من خلال تأكيده على أنّ صورة الإنسان لا تتأكد وتتحدد إلّا إذا حددها الآخرون، بقوله «لكي أكون فكرة عن ذاتي لابدّ أن أمرّ من خلال الآخر»²⁶. فبإمكان الذات أن تتجاوز الحاجز الفاصل بينها وبين الآخر وتهدم فكرة التعالي عليه، وتكسر صورها النمطية المكوّنة عليه، وتسعى للتواصل معه، حتى يتمكن هو الآخر من تقبلها والإنسجام معها، لأنّ «تقسيم الصور إلى أنواع لا يعني اختلافها، فهي كلها تعتمد أساسا على ظاهرة التأثير والتأثر بين شعبين مختلفين»²⁷. فلا يجب أن تضيع ملامح التواصل الإنساني بين الأنا والآخر وتطوير تلك العلاقة الإنسانية التي نشأت بينهما، من منطلق ثنائية التأثير والتأثر. ونمثل لهذا بواقع المجتمع الجزائري الذي شهد تواجدا صينيا كثيفا في الآونة الأخيرة، فنظرا لمميزات الفرد الصيني الخارقة وخبراته وحبّه وتقديسه للعمل وإتقانه وغيرها، أصبحت الجزائر لا تستطيع الإستغناء عن خدماته بهدف تطوير تجارتها وإقتصادها. حيث إحتكاك الأنا العربية بالآخر المتطور من شأنه أن يكسبها عدة خبرات في شتى المجالات.

ونجد هذا مؤكدا في قول رامي الكيلوي «أن يكون الحوار مبنيا على تسامح وتقبل رأي الآخر، وهذا طبعاً لن يتحقق إلّا إذا إقتنع كل طرف بأنّ لدى مجاوره ما ينبغي أن يتعلّم منه، فالحوار بالعمل لن يتم إلّا إذا أصغى كل طرف إلى الآخر»²⁸. وبالتالي نجده يدعو من خلال طرحه هذا إلى تقبل فكرة الاختلاف وحتمية التعايش مع الآخر. فلا يمكن إستغناء الذات عن آخرها والعكس، هذا ما يعزز تلاقح ثقافاتهم وبناء جسر تواصلي وتوطيد العلاقات بينهما على جميع الأصعدة. «فحوار الحضارات هذا يؤلف مرحلة لازمة على الصعيد الإقتصادي، في التساؤل الإنتقادي وفي التغيير الجذري لطراز تنميتنا وفي إكتشاف غائبات أخرى للتنمية وفي الوصول إلى تعريف آخر لمعنى التطور والنماء»²⁹. فإقتصاد أي دولة لا يكتمل إلّا بتطويره وتنميته عن طريق الإشتراك مع الآخر. وعليه لا يمكن بناء الذات نفسها بنفسها دون الرجوع إلى الآخر خاصة إذا كان ذا خبرة ومتميز بالتطور والحدثة، متجاوزة بذلك الصورة المشوهة المرسومة عن الطرف الآخر.

ومن ثمة «يتحول الاختلاف إلى رحمة، فيؤسس لثقافة، يفتح فيها الإنسان على أخيه الإنسان، ويحترم ما يميّزه. خصوصا حين يتم التعرف على المختلف الذي يغني العقل البشري، ويبثّ الحيوية في العلاقات الإنسانية»³⁰. إذن ينبغي الإعراف بوجود علاقة بين "الأنا العربية" و"الآخر"، حيث تجمعهما مصالح مشتركة ومختلفة في زمن الحدثة والتطور، والذات ليس بإستطاعتها أن تتخلص من الآخر في ثقافتها والتي لا تتشكل إلا بضربها في الثقافات الأخرى.

ومن أجل أن تكتمل هذه العلاقة الإيجابية بين الطرفين، يجب التركيز في الأول على «أبرز وأخطر ما يسم كثيرا من جوانب ثقافتنا وحياة الإنسان في مجتمعاتنا هو الافتقار إلى الروح والمنطق العملي والفاعلية الإنسانية والتعاون، وضعف الروح الجماعية والميل الشديد إلى الفردية والمثالية»³¹. فلا ثقافتنا ترتقي إلى المثل الأعلى، ولا وسائلنا وأفكارنا مضبوطة وعرفت التحقيق. فالثقافة والحضارة العربية تقودنا حتما إلى الالتحام مع الآخر متصلين من فكرة الهيمنة والسيطرة، وذلك لإحداث التكامل وتعويض النقص الحاصل في ثقافتنا.

فمن منطلق الإنسانية يرى رجاء جارودي «ضرورة التعامل مع الآخر واللجوء إليه، ليكون عوننا وهذا نوع من التكامل. ويكون هذا الحوار مجسدا في مختلف المجالات سواء الفكرية، الثقافية، الاجتماعية، الاقتصادية...»³². فالذات جزء لا يتجزأ من ثقافة الآخر، فأى ثقافة لم تكن وليدة نفسها، وإنما وليدة التأثير والتأثر، فهناك ارتباط وثيق بين الثقافات وامتزاج بين حدودها، بغض النظر عن المتفوق والمتدني، وهذا ما يؤدي حتما إلى التكامل الثقافي. فعند غوصنا في التراث والثقافة العربية واستشفاف خصوصيتها، نجد بداخلها صورة وجانب للآخر الغربي، إذ لا تخلو أية ثقافة من تمثيل للآخر في جوفها.

6. الخاتمة:

وعليه يمكن القول أنّ دراسة تمثيلات الآخر مقارنة مع التمثيلات الثقافية للذات العربية قد تمحورت حول فكرة أنّ "الآخر" هو المؤثر الحضاري و الأنا التقليدية التابعة له. باعتبار هذا "الآخر" في أبسط صوره هو نقيض ومتمم للذات في نفس الوقت في حدود تمثيلاته الإيجابية والسلبية، سواء كان هذا داخل نظام القيم الاجتماعية أو الثقافية أو حتى السياسية، فمن منظور تأثيره السلبي يعتبر كأداة لطمس وتهديم كل ما ينتمي للماضي والتقليد عند الذات العربية من عادات وقيم ومبادئ ثقافية أصيلة (الخصوصيات الثقافية العربية) محاولا بذلك تسليط كل سبل الإغراء والتأثير عليها بغية التخلي عن تلك المقومات. لكن هذا لا ينفي أنّ للآخر جانبا إيجابيا وتأثيرا على الأنا العربية فهو يتمركز حولها ويسعى للنهوض بها فكريا وثقافيا وتطوير ذاتها، بغض النظر عن فكرة تفوقه العقلي وسموه الثقافي والحدائي، حتى لا يكون هناك فكر وتطوير مسطح لا ينقص من قيمة الذات.

هذا ما يقودنا إلى الجزم بأن بين "الأنا" و"الآخر" علاقة جدلية فعالة ثابتة ومتضاربة على مستوى الثقافات، فأينما وجد اختلاف ثقافي بين ضفتين مختلفتين وجد صراع وصدام بينهما، لكن هذا لا ينفي أنهما وجهان لثقافتين متكاملتين، لا يمكن الفصل بينهما.

7. قائمة المراجع:

- 1- حسني محمود، الضفة الأخرى (دراسات في الثقافة والأدب والنقد)، دار وائل للنشر، ط1، 2008، ص17.
- 2- المرجع نفسه، ص18.
- 3- المرجع نفسه، ص18.
- 4- رشيد دحدوح، التواصل الثقافي ودوره في تجديد الفكر العربي، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، ط1، 2016، ص96.
- 5- المرجع نفسه، ص96.
- 6- حسني محمود، الضفة الأخرى، ص22.
- 7- عبد الوهاب المسيري، فكر حركة الاستنارة وتناقضاته، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1998، ص3.
- 8- عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، ص361.
- 9- المرجع نفسه، ص324.
- 10- المرجع نفسه، ص333.
- 11- المرجع نفسه، ص328.
- 12- الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2007، ص112.
- 13- عبد الوهاب المسيري، الثقافة والمنهج (حوارات)، تحرير: سوزان حرفي، دمشق: دار الفكر، ط1، 2009، ص297.
- 14- عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، سيرة غير ذاتية، غير موضوعية، مطبوعات الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2001، ص17.
- 15- عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، ص325.
- 16- المرجع نفسه، ص340.
- 17- سورة المائدة، الآية 48.
- 18- الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص115.
- 19- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1999، ص56.

- 20- عبد الله ابراهيم، المطابقة والاختلاف، ص327.
- 21- حسن عليان، العرب والغرب في الرواية العربية، عمان: دار مجدلوي للنشر، ط1، 2004، ص222.
- 22- عبد الله ابراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص57.
- 23- عبد الله ابراهيم، المطابقة والاختلاف، ص331.
- 24- ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، بيروت، 2002، ص22.
- 25- ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، 2013، ص33.
- 26- يُنظر؛ ياسين بوغديري، مشكلة الآخر في الفلسفة المعاصرة، مجلة كتابات معاصرة، العدد37، 1999، ص94.
- 27- عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص69.
- 28- رشيد دحدوح، التواصل الثقافي ودوره في تجديد الفكر العربي، ص88-89.
- 29- المرجع نفسه، ص88.
- 30- ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، ص07.
- 31- حسني محمود، الضفة الأخرى، ص27.
- 32- رشيد دحدوح، التواصل الثقافي ودوره في تجديد الفكر العربي، ص87.